

## علاقة الانسان بالكون (١)

عن الشاعر الآلهي رابندرانات طاغور

أُنيعت مدينة اليونان القديمة بين جدران المدن واسوارها المشيدة والحقيقة أن كل المدنيات الحديثة لها بداياتها في مهاد قوامه اللبنات المرصوة . ولا مريّة في أن هذه الجدران المشيدة تترك آثارها المحتومة العميقة في عقول الناس . فانها تلزمهم أن يضعوا نصب أعينهم تلك الحكمة السياسية المعروفة « فرق واحكم » وتطبعها في عقولهم وتضطرهم الى الاعتقاد بأن كل انتصاراتنا لن تنال الا باحكام تحصينها وفصل احداها عن الاخرى . فنفصل بذلك بين أمة وأخرى ، وبين صورة من المعرفة وصورة غيرها ، وبين الانسان والطبيعة . أنها تقوى فينا نزعة الشك في كل ما هو كائن خارج حدودها التي اقناها وشيدنا دعائمها ، وما من شيء يستطيع أن يقتحم لنفسه طريقا الى حيز اعتبارنا ، الا بعد موقعة كبرى وجهاد عظيم .

لما أن ظهر غزاة الآريين لأول مرة في الهند كانت تلك البلاد عبارة من رحاب متسعة مترامية الاطراف تكسوها غابات لم يلبث الغزاة ان انتفخوا بها وجنوا ثمراتها . فقد اتخذوا منها ملاجئ يتقون به حرارة الشمس القاتكة وهجمات الرياح الاستوائية القاتلة ، كما وجدوا فيها مرتعا خصيبا لماشيتهم ، ونارا يوقدونها للتوسل وتقديم التضحيات ، ومواد يبتنون بها القرى والاكواخ . ولقد سكنت كل قبيلة ، وعلى راس كل منها بطريقها Patriarch الأكبر في غاية من تلك الغابات ، حيث وجدت ما تحتاج اليه من هي طبيعي ، وغذاء وافر ، وماء دافق فالمدينة في الهند وليدة الغابات وبين جنباتها الرحبة اُنيعت وآتت أكلها . وفي صميم هذه البيئة وذاك الوسط تلونت بلون خاص ، وطبعت بطابع وحده .

(١) عمدنا في العصور الى تأخير فصول نقلها عن رجال العصر المشهورين أو عن القدماء غير ناظرين الى مبادئ اصحابها فنقلنا عن برتر ندرسل وعن قايل ادم وعن مكبريد ولا نزال نلخص فصولا اخرى عن شرتون هيل . وهذا فصل نقلناه عن الشاعر الفيلسوف طاغور وسنوال نقل فصول عنه في الاعداد الانية حبا في التوزيع والفائدة .

ولقد حوطت تلك المدينة بحياة الطبيعة الرحبة وتغذت بلبانها واتشجت بردائها فكان لها بمختلف مظاهرها وتباين نواحيها ، اكبر علاقة ، وأمن آصرة .

قد يسبق الى حدس البعض أن حياة هذه صورتها وذلك طابعها ، قد تطفئ جذوة الذكاء الانساني ، وتهبط حرارة تلك المثيرات التي تفرع بالانسان الى التقدم والارتقاء بما تسبب من انحطاط في مستوى الوجود . غير أننا نجد في الهند القديمة أن الحالات التي سببتها حياة الغابات لم تستقو على عقل الانسان بما يضعف من زعاته ، ولم تذهب بشيء في مستغزات نشاطه ، بل كان كل أثرها محصوراً في أن تولى بتلك الاشياء الى وجهة خاصة . فالانسان كان حراً . لأن اتصاله باوجه النشوء والتطور التي كانت تخف به في الطبيعة قد حررت عقله من كل رغبة في أن يمد من سلطانه ، فيشيد الاسوار الشائخة حول ما يجمع من حطام . واذن لم يكن غرضه محصور في أن يملك ويجمع ، بل في أن يحقق وينظر ، وأن يوسع من مجال ادراكه ، وان ينشأ وينمو مع الاشياء المحيطة به ، لابل أن يشب مندجاً فيها .

لقد أدرك بان الحقيقة تتضمن كل شيء ، وأنه لا يوجد من شيء في الوجود هو مطلق الانفصال عن الكل ، وأن الطريق الوحيد الذي يقودنا الى حيث نجد الحقيقة هو أن ننفذ بوجودنا الى صميم كل الاشياء والموجودات بيد أن تحقيق تلك الالفة الكاملة الكائنة بين روح الانسان وروح الوجود ، كانت الغرض الاوحد الذي سمي اليه حكاؤنا الذين عاشوا بين الحراج والغابات في بلاد الهند القديمة خلال الازمان الاخيرة حطمت تلك الغابات و انقلبت حقولاً مزروعة ، ونبئت حف فيها المدن المشيدة و المواسم المنيمة . ولقد قامت عليها دولات قوية قادرة ، كان لها اتصال كبير بكثير من دولات الأرض العظمى . غير ان عين الهند حتى في تلك العصور التي خفقت على ربوعها فيها اعلام السعادة و رفعت في سماءها روح السلام ، كانت تنظر نظرة القداسة الى تلك المثل العليا التي رمت الى تحقيق الانسانية ، والى عظمة تلك الحياة الطبيعية التي متع بها سكان الاكواخ ، والتي استمدت خيرة آمالها من تلك الحكمة التي خبئت بين جدرانها .

والظاهر أن الغرب يفتخر بانه ماض في اخضاع الطبيعة ، كما لو كنا نعيش

في عالم معاد لطبيعتنا ، حيث نضطر الى أن نصارع في سبيل كل شيء نحتاج اليه لننزعه من نظام غريب عنا ، بعيد عن الخضوع لارادتنا. وما هذا الشعور الا نتاج لعادة العيش في المدن المسورة الحصينة ، وتدريب العقل عليها . لان الانسان في حياته المدنية إنما يوجه كل الضوء المنبعث عن بصيرته العاقلة الى العناية بحياته واعماله الخاصة ، وما من نتيجة لهذا سوى أن يخلق فاصلا صناعياً بين نفسه وبين الطبيعة التي يعيش في احضانها .

اما في الهند فإن وجهة النظر مختلفة عن ذلك تماماً . إنها إنما تجمع بين العالم والانسان وتتخذها حقيقة عظمى لا تنفصل اجزاؤها . توجه الهند كل جهودها الى معرفة تلك الألفة الكائنة بين الفرد والكون . أنها تشعر باننا لن نستطيع أن نتصل بوجه مامن اوجه الاتصال بما يحيط بنا من الاشياء ، اذا كانت تلك الاشياء غريبة عنا ، اجنبية عن طبيعتنا . اما شكوى الانسان من الطبيعة فتتجسر في أنه مازم بان يحصل على كل حاجياته بمجهوده الذاتي . نعم اغير أن جهوده تلك ليست عبثاً ولا هي ضائعة سدى . أنه يجنى كل يوم ثمراً ، وينال نجاحاً . وذلك يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين الطبيعة ، لاننا لا نستطيع أن نحصل على شيء ونجعله جزء من وجودنا ، ما لم يكن في ذلك شيء ، قدر من حقيقة الاتصال بذاتنا .

يمكننا أن ننظر في طريقا مامن جهتين مختلفتين . فقد تملثه لنا احدى النظرتين كأنه يقوم فاصلا بيننا وبين الشيء الذي تتجه اليه رغباتنا . وفي هذه الحال ننظر في كل خطوة نخطوها خلال سياحتنا على هذه الطريق كما ننظر الى شيء لم نلناه الا بعامل القوة والقبس انزعاجا من عقبات وحوائل تصدنا دونه . وقد تملثه لنا النظرة الاخرى كأنه السبيل الوحيدة التي تسلم بنا الى نهاية التي نرغب فيها ، وعلى ذلك تكون الطريق التي نسلكها جزء من الغرض الذي نسعى اليه . إنما يصبح الطريق الذي نسلكه في هذه الحالة بدء نجاحنا ، فاذا ضربنا فيه فاننا نجني كل شيء ، يمكن أن يؤدي اليه . اما وجهة النظر الاخيرة فهي بذاتها وجهة نظر الهند ازاء الطبيعة . فان اهل الهند إنما يؤمنون بهذه الحقيقة العظمى ، حقيقة أننا في اللفة تامة مع الطبيعة . وان الانسان إنما يستطيع ان يفكر لان بين افكاره وبين الاشياء التي يفكر فيها لغة واتساق . وأنه ان

قدر على أن يستخدم قوى الطبيعة في تنفيذ أغراضه ، فأما يرجع السبب في ذلك الى أن قوته في حالة ألفة وتطابق مع القوة العامة ، وأنه في درج أعماله كلها لن تصطدم أغراضه مع القصد والغاية المنبثان في تضاعيف الطبيعة .

أما الغربيون فيشعرون بأن الطبيعة هي عبارة عن الأشياء غير الحية و الحيوانات ، وأنه حيناً تبدأ الحياة الانسانية فهناك يقوم صدع متناه لا يسبر غوره يفصل بين عالمين متناقضين . وعلى هذا يترتب أن كل شيء ينحط في درجات الوجود فهو في حيز الطبيعة الصامتة . وأن كل شيء مطبوع بطابع الكمال عقلياً وأدبياً ، فذلك في حيز الطبيعة الانسانية . وما مثلهم في هذا الا كمثل من يفصل بين السكم وبين الزهرة . ويجعلهما في حيزين متباعدين ، ناسباً وجود كل منهما الى مبدأ لا يتفق والمبدأ الذي أوجد الآخر . غير أن الحالة في الهند على نقيض ذلك . فأنهم هنالك لا يتدكأون في الاعتراف بصله الرحم الواقعة بينهما والعلاقة التي تربطهما معا بالكل اللامتناهي

على أن الألفة الاساسية في الخلق لم تكن في نظر أهل الهند عبارة عن تأمل فلسفي لا غير . بل كان الغرض الذي رموا اليه في حياتهم هو تحقيق تلك الألفة شعوراً وعملاً . فبال تأمل والعبادة و تنظيم أعمال الحياة ، استطاعوا ان يغذوا ضمائرهم ووجدانهم على اسلوب جعلهم يشعرون بأن في كل شيء يحوطهم معنى روحانياً . فالأرض والماء والضوء والثمار والأزهار لم تصبح في نظرهم مجرد ظاهرات طبيعية ينتفع بها ثم تترك سدى . بل إن هذه الأشياء قد اعتبرت عندهم ضرورات لا بد منها للوصول الى اقصى قمة من المثل الاعلى في الكمال ، كضرورة كل نعمة من النعمات في التأليف بين القطع الموسيقية . لقد أدرك أهل الهند بما فيهم من قوة الحس الكامن بأن حقيقة هذا العالم ذات معنى حيويًا ندركه ، وأنه من الواجب أن نقف على دقائقها وأن نبدع صلة وجدانية بيننا وبينها ، لا من طريق الفرائب العاصية ولا من طريق الطمع في الانتفاع والكسب ، بل بتحقيق ذلك المعنى في جو تسود فيه روح العطف ، ممزوجة بشعور من الغبطة وحب السلام .

يعرف ذو العلم ، في ناحية في نواحي بحثه ، بأن العالم ليس مجرد تلك الأشياء التي تدركها الحواس . أنه يعرف بأن الماء والأرض هما في الحقيقة نتاج تفاعل قوتان تظهر لحواسنا ماء وأرضاً . وكيف لا يكون علمنا بها جزئياً مع كل هذا ؟

في حين ان الرجل الذي ينظر بعين الروح لا بعين الحس، إنما يعلم أن الحقيقة الاخيرة في طبيعة الماء والارض، ترجع الى مقدار ما نستطيع أن ندرك من الارادة الباقية السرمدية التي تبرز اعمالها خلال المصوّر وتطاول الازمان، وتتشكل في صور من القوى المختلفة، نحقق نحن وجودها في تلك المظاهر. وليس في هذا شيء من العلم المجرد، بل هو ادراك الروح بالروح. على أن هذا الاسلوب لن يسلم بنا الى القوة، كما يسلم بنا العلم وطرق المعرفة. بل يسلم بنا الى الغبطة وانشراح الصدر، الذي هو نتيجة لتوحيد اشياء تربط بينها أواصر شتى. أما الرجل الذي لا يسلم به علمه باحوال الدنيا الى اعماق ابعد غوراً من تلك الاعماق التي يفضي اليها العلم، فانه لن يدرك طبيعته تلك الاشياء التي يستوعبها الرجل ذو البصيرة الروحانية من ظاهرات الطبيعة. فانه يعتقد ان الماء ليس وسيلة للنظافة لا غير، بل يشعر بانه يطهر قلبه ويصفيه من أدران الرذائل. وليست الارض عنده مجرد وطأة تحمل جسمه، بل هي وسيلة للسرور والانشراح. ذلك لانه يشعر بان علاقته بها ليست مجرد علاقة مادية. بل علاقة ذات معنى حيوى كائن. فاذا لم يحقق الانسان قرابته وأواصر علاقته بالطبيعة فانه يعيش في سجن تتكون جدرانه المسورة من اشياء أجنبية عن طبيعته. اما اذا مضى شاعراً بانه إنما يرى الروح السرمدية منبثة في تضاعيف كل الموجودات، فهناك يتحرر، لانه بذلك يكون قد كشف عن الحقيقة الكاملة لهذا العالم الذي يعيش في جنباة. هنالك يجد الحقيقة، ويحقق الألف الكائنة بينه وبين الكل. على هذا نجد الحال في بلاد الهند. فان أهلها يمتقدون اعتقاداً تاماً في تلك العلاقة القريبة التي تصل بينهم وبين ما يحورطهم من اشياء جسمانيا وروحانياً، وتراهم يهلمون لشروق الشمس وتدفق المياه وثمار الارض، على اعتبار أنها اشياء تمثل الحقيقة الخالدة التي تضمهم وتلك الاشياء في بيئة واحدة. ولهذا نجد أن سفر « الجاياترى » Gayatri هو سفر التأمل اليومي، وهو مقطوعات شعرية تتضمن خلاصة كل ما في كتب الفيدا Vedas وهي إنما تتخذ وسيلة لتحقيق الوحدة الاساسية بين العالم وضمير الانسان. فانها تعلمنا كيف ندرك تلك الوحدة التي يربط « الروح الخالد » بين اجزائها. ذلك الروح الذي خلق الارض والسماء والنجوم، وهو فوق ذلك يزيد عقولنا اشعاعاً بما يبعث في الضمير والادراك من أضواء تترواح

بين الثبات والحركة ، ولكن في سلسلة غير مفصومة ، تبعاً لحركة العالم الخارجي .  
وليس من الحقيقة في شيء أن أهل الهند قد حاولوا أن ينكروا الفروق  
التقييمية الكائنة بين الأشياء . لأنهم يعلمون حق العلم ، أن هذا يجعل الحياة في  
حيز المستحيلات . فإن الشعور بتفوق الإنسان وارتقائه في نظام الخلق ، أمر  
لم يغب عن أذهانهم لحظة واحدة . ولكن كان لهم بجانب هذا فكرتهم الأصلية في  
ذلك الشيء الذي ينحصر فيه تفوق الإنسان واستعلائه على الطبيعة ، وأن هذا  
الشيء ليس في قوه الاستجماع والكسب ، بل في قوة الاندماج والوحدة .  
لهذا نجد أن أهل الهند قد جعلوا قبلة حجهم إلى حيث يكون في الطبيعة أثر من آثار  
الجمال والعظمة ، حتى بذلك يستطيعون أن ينزعوا العقل من دائرة الحاجات  
الضيقة ، وأن يحققوا وجوده في اللانهاية . وكان هذا هو السبب الأوحد في  
أن تقلع أمة برمتها كانت من قبل من أكلة اللحوم عن أن تنجر البهائم وتتخذها  
طعاماً ، وتمكف على غرس بذور العطف العام والحب المتبادل . ولا مرية في  
أن هذا العمل نسيج واحد في تاريخ النوع الانساني .

لقد علم رجال الهند أننا بإقامة الحواجز الطبيعية والعقلية ، إنما ننزع  
انفسنا من حياة الطبيعة الفائض معينها ، واننا اذا أصبحنا الانسان مجرداً ، لا  
الانسان مندمجاً في الكون ، فانما نخاق بذلك من حولنا جواً كثيفاً من المشكلات  
الممضة ، واننا بذلك ننضب النبع الفياض الذي يزودنا بما نقدر به على حل تلك  
المشكلات ، فنمضي من ثم في تجربة كل الاساليب الصناعية ، التي يؤتى كل  
اسلوب منها ثمرة اليانعة من معضلات لا نعرف لها حلاً ، ولا نبلغ منها الى غاية .  
فان الانسان عند ما يترك وكنهه الفطري وسكنه الفريزي في جوف الطبيعة العامة  
وعند ما يمشي على جبل الانسانية وحدها ، فان مثله في ذلك يكون كمثلي من  
يريد أن يرقص متراوحاً بين أطباق الهواء ، أو من يهيب تحت قدميه هوة يقع فيها  
فيجهد كل مجموعته العصبية وكل عضلاته في الاحتفاظ بتوازن جسمه لدى كل  
خطوة يخطوها ، حتى اذا ما اخذ منه التعب واكده النصب ، أ برق ضد العناية  
وأرعد ، ومضى وماؤه شعور مؤلم ممزوج بكبرياء كاذبة ، ظاناً بأنه سيء الحظ  
مظلوماً وأن طبيعة الأشياء إنما تتجه في ناحية يشعر بأنها ضد غاياته ومقاصده  
غير أن هذه حالة لا يمكن أن تدوم . فالانسان لا بد من أن يحقق يوماً  
طبيعة وجوده كجزء من كل متلائم النواحي ، ويحدد مركزه في اللانهاية .

يجب أن يعرف أنه على الرغم من كده ونصبه ، فإنه لا يستطيع أن يجعل خلية حياته تفيض بالشهد ، لأن قوت حياته إنما يوجد خارج جدرانها المسورة . يجب عليه أن يدرك أنه إذا منع عليه الاحتكاك بالانهاية المحيية المطهرة فإنه عند ذلك يرجع منقضاً على نفسه يطلب منها الحياة والبرء من علله فتثور في قلبه ثورة الجنون ، فيمزق اجزاء نفسه أى ممزق ، ثم يأكلها جزء جزء ، فكأنما يهضم بذلك حقيقة وجوده . وهو إذ يفقد سنادة الكل اللامتناهي ، يصبح فقيراً معدماً صفر اليدين حتى في صفاته الانسانية ، صفات البساطة والسذاجة ، ويصبح قذر النفس ، تملو وجهه قتره الخجل والانقباض . هناك ينضب معين ثروته الحيوية وتحيط به أسباب الخرق والاسراف والخجل ، وتحتكم فيه شهواته ولا تخضع لحاجات حياته ، ذاهبة الى اقصى حد من الافراط والفجور . وتصبح الشهوات غاية في ذاتها ، وتشعل في الحياة جذوة وتمدين اجزائها حريقاً مشتعلاً تنبعث مع سنته : نغماتها الشوهاء الموقعة على قيثارة نفسه المتلظية .

على هذا نجد اننا في قرارة أنفسنا انما نعمل دائماً على انتاج كل ما هو منزع مخيف ، لاعلى انتاج كل ما هو مفر جذاب . ففي الفن نعمل دائماً على ان نبكر ، ونغض الطرف من الحقيقة الخالدة التي هي على قدمها متجددة الشباب . وكذلك في الادب ، نغفل عن ان ننظر نظرة تامة في الانسان ، الذي هو بسيط ، بيد انه عظيم . فيظهر لنا الانسان كمسألة ببيكولوجيه ، أو كشهوة مجسمة في ذاتها ، عظيمة لأنها غير قياسية . ذلك لاننا ننظر فيه تحت اشعة مصطنعة شديدة التأثير . فان ادراك الانسان عند ما يصبح شديداً الارتباط بذلك الحيز الذي يجعله متين الآصرة بما يحوط نفسه الانسانية ، فان جذور طبيعته لا تجد من حولها تلك البيئة التي تساعد عناصرها على النماء ، وتظل روحه مشرفة على هاوية الاضمحلال والموت جوعاً ، ويتبدل قوة الصحة ، بحلقات من المنبهات الشديدة ، بعضها يحوى بعضاً . إذن فالانسان هو الذي يخطئ في معرفة ما ينطوى عليه وجوده من معاني الجمال ، فيقيس عظيمته بمقدار الكم لا بنسبة اتصاله الحيوى بالانهاية ، ويحكم على نشاط نفسه بما فيها من قدرة على الحركة ، لا بنسبة اطمئنانها الى بلوغ الكمال — ذلك الاطمئنان الهادئ الذي يبعثه في النفس منظر السماوات بنجومها المتألقة ، والبحار باصوائها المتهددة ، بل وكل ما يفيض به نواحي الوجود من توازن الخطو ، وتناسق الاجزاء .

ليس من شبيهه في التاريخ لغزو الهند الاول ، سوى غزو الاوربيين لامريكا  
في المصور الحديثة. فانهم قوبلوا هنالك بغابات فديعة ، وحروب دموية مع السلالات  
الاصلية التي كانت تسكن تلك البلاد . غير أن هذا الشجار الذي قام بين الانسان  
والانسان وبين الانسان والطبيعة ، قد استمر حتى النهاية ، فلم يتفاهم الطرفان  
مطلقا ، ولا التقيا في مواضع ساد فيه السلام . أما الهند فان الغابات التي ظلت  
طوال الاعصر سكن المتوحشين والهمج ، قد أصبحت مباءة الفلاسفة ومأوى  
الحكماء ، على الضد مما كان في امريكا . فان تلك الغابات ، كاندرا ثيات الطبيعة العظمي  
وموضع عبادتها الاقدس لم تبعث في روع الانسان من معنى جديد ولم تزوده بشعور  
من العظمة أو حب الاندماج في اللاهية . لقد اتحدت كمصدر للقوة والثروة ،  
ولكنها قليلا ما بعثت فيه هنالك حسا من الجمال وشعورا بالخلود ، فكانت  
على تدابر فترات الزمان توقظ في نفس شاعر ماروح الشاعرية . انها لم تحز في زمان من  
الازمان الحديثة في امريكا قدرا من الارتباط بقلب الانسان . ولم تشهد شيئا  
من طبيعة التفاهم الروحي ، يقوم بين روح البشر وروح الكون

واست أردد لحظة واحدة في ان أعلن بأن رغبتى لم تتجه الى القول بأن  
طبيعة الحوادث كان من الواجب أن تسير في غير هذه الوجهة . فان التاريخ  
يصبح في دوره عبارة عن مجموعة حوادث لا أثر لها ان هي تكررت على وتيرة  
واحدة ونقط بعينه خلال تتالى الاجيال ، وفي مختلف النواحي . فانه من الاربع  
لتجارة الارواح ان تنتج الامم حاصلات مختلفة باختلاف مواقعها على كرة الارض  
وتعرض بها في سوق الانسانية بحيث يكون كل نتاج منها متمم وضرورى  
لغيره من النواتج . أما ما أريد أن أقدر هنا حقيقة أن الهند منذ بدء حياتها قد ووجهت  
بمجموعة من الحالات الخاصة ، لم تفقد شيئا من مؤثراتها . فان أهل الهند ،  
خضوعا لحالتهم التي حوطتهم في الحياة ، قد فكروا وسبحوا مع الخيال ،  
وجهدوا في الحياة وتألموا ، وغاصوا الى اعماق أغوار الوجود ، فحققوا شيئا من  
الثابت أنه ذو قيمة كبيرة في نظر أفوام تمشى تاريخهم في طريق من النشوء  
مخالف للطريق الذي تمشى فيه تاريخ الآخرين . فان الانسان الكى بكل نمائه  
يحتاج الى كل العناصر الحية التي تؤلف بين أجزاء حياته المتبخالطة . وهذا هو  
السبب في أن غذاءه يجب أن يزرع في حقول مختلفة ، وينتج من منابع متفرقة

المدنية عبارة عن تكوين تميّز كل أمة في أن تجعل رجالها ونساءها في  
 الفة مع رقي مثله العليا . فكل مماهد ذلك التكوين وقوانينه وشرائعه وكل  
 مافي مثله من الحسن والقبح ، وكل تعاليمه الادراكية والوجدانية انما تتجه  
 بكليتها الى تحقيق هذه الغاية . فالمدنية الحديثة ، بكل مافيها من القوات المنظمة ،  
 انما تعتمد الى غاية يصبح الانسان معها كاملا طبيعيا وعقليا وأديبا . وهناك  
 تتجه كل جهود الامم الى النظر في الطريقة التي يصبح بها الانسان متسودا على  
 مافي بيئته ، فتجد أن كل الامم قد حصرت جميع مواهبها في العمل على الملك  
 والاستجماع مكتنزة كل ما تصل اليه يدها من العدد لكي تستقوى بها على  
 العقبات التي تعترض سبيل غزوها أو تقف سيرها . لقد حصرت الامم كل  
 همها في تنظيم حقوقها فهي تتحارب الطبيعة طورا وتحارب أمما أخرى طورا آخر .  
 ولهذا تجد أن معدات قتالها قد أخذت تزداد قوة وفتكا كل يوم ، وان آلاتها  
 ونظمها ومستحدثاتها قد اطردت الزيادة فيها بنسبة مروعة . ومما لاشك فيه أن  
 ذلك وجه من الانتاج جدير بالفخر ، ودليل محسوس على قدرة الانسان في  
 التسود على قوى الطبيعة ، تلك القدرة التي لا تعرف حائلا يصدعا عن غاية ، ولا  
 تنشأ من غرض سوى أن يسود الانسان على كل شيء في هذا الوجود

كذلك نجد الحال في الهند القديمة . فان شعوبها قد تملكها شعور دفع بها  
 الى بلوغ مثل أعلى من الكمال ، حصرت كل همها في سبيل بلوغه ، ولكن لم يكن  
 الغرض من الوصول الى هذا المثل حياة القوة . لهذا تجد ان هذه الشعوب قد  
 أهملت في تهذيب كفاياتها لتبلغ بها الى أرقى حد ممكن ولم تحاول أن تنظم  
 رجالها في صفوف تستخدم للهجوم والدفاع ، ولا للتعاون في استجماع الثروة ،  
 أو السيادة في عالمي الحرب والسياسة . فان المثل الذي رمى الى تحقيقه رجال  
 الهند قد جذب أكثرهم نبوغا أو أشدهم على الحكمة ا كبابا ، الى حيث يتمتعون  
 بحياة بعيدة عن كل شيء الا عن التأمل الذهني ، وما من ربية في أن العمل  
 على حياة تلك الكنوز التي استجمعوها بهذه الطريقة خير الانسانية بنفوذهم  
 الى صميم الاسرار التي تحوط الحقيقة وتحجبها عن الانظار ، قد أفقدهم كثيرا  
 مما كان في مستطاعهم أن يتمتعوا به من ضروب النجاح العالمي . غير أن انتاجهم  
 هذا ، من وجهة أخرى ، لانتاج جدير بالاعجاب تحقيق بالفخر العظيم . فانه

لدليل سافر على أن الآمال الانسانية لا تعرف حداً ولا تقف عند غاية ،  
وانها لا ترمى الى قصد اللهم الا الى تحقيق الانهائية و ثبات وجودها الحقيقي  
لقد كان منهم ذو الفضيلة ، وذو الفعل ، وذو الشجاعة وكان منهم الياسيون  
والملوك والامبراطرة الذين حكموا تحت سماء الهند . ولكن الى أية فئة من  
في هذه الفئات تنظر عين الهند لتنتخب منهم من يمثل حقيقة الانسان ؟ نظرت  
الى الريشي Rishis ومن هم الريشي ؟

« هم أولئك الذين بعد أن تحققوا من الاندماج في «الروح الاعلى» بالمعرفة ،  
قد ملئوا حكمة ، ولما ان وجدوه في وحدة مع الروح البشري قد اصبحوا في  
الفئة تامة مع النفس الكامنة . وبعد أن حققوا وجوده في القلب ، تحرروا من كل  
الزعات التي تؤدي اليها الانانية . وبعد أن اثبتوا بالنجربة أنه كائن في كل أوجه  
النشاط التي تظهر آثارها في نواحي الوجود قد قنعوا بالهدوء والطمأنينة .  
هم أولئك الذين بعد أن بلغوا الى درجة الاتصال بالله الواحد الفرد من كل  
الوجوه قد حصلوا على السلام الابدي ، فآخذوا بالكل ، واندمجوا في حياة  
الانهائية . »

وعلى هذا ترى أن تحقيق علاقة الانسان بالكل ، والاندماج في كل شيء من  
طريق الاتصال بالله ، قد اتخذ في الهند على أنه الغاية ، وأنه القصد الأخير الذي  
يجب أن تسعى له الانسانية .

في استطاعة الانسان أن يهدم ويخرب ، وأن يكسب ويجمع ، وأن يخترع  
ويستكشف ، ولكن عظمتة الحقيقية تنحصر في أن روحه يستطيع أن يدرك  
الكل . وليس لسجن النفس الانسانية في غلاف من العادات الجافة من معنى ، اللهم  
إلا الفناء المحتوم اذ تكتنفه في تلك الحالة اعاصير من أعمال الحياة العمياء تلف  
حوله لئلا فتعجب عنه الحق كما تحجب الزواجر الترايبية نهاية الأفق عن الابصار .  
ولا مزية في أن هذا يهدم حقيقة وجوده ويذهب بعامية حياته ، التي هي لدى  
الواقع ليست بشيء سوى روح الفهم الحقيقي لطبيعة الاشياء . وفي الحق أن الانسان  
ليس عبدا لنفسه ، ولا للطبيعة . إنه عاشق محب . فخرته وواجبه ينحصران في الحب ،  
الذي لا معنى به الا كمال العلم وتمام الادراك . ومن طريق هذه القوة . قوة العلم والادراك  
والوئوف على حقيقة وجوده ، يتحد ويندج في «الروح الاعلى» الممثل في كل شيء .

والسكائن في كل شيء ، والذي هو لدى الواقع شهيق روحه وزفيرها . وحيثما يريد الإنسان أن يستعلي بنفسه منازعاً بقية الموجودات مزاحماً كل ما يحف به ، ليحوز بذلك درجة أعلى من درجة متسوداً على كل الأشياء ، فهناك يبدأ انفصاله عن (الروح) وهذا هو السبب الذي من أجله يصف (اليوبانيشاد) كل الذين وصلوا إلى الغرض الأخير الذي ترمي إليه الحياة الإنسانية بأنهم (في سلام) وأنهم مع (الله) ويعنون بذلك أنهم في النفاة تامة مع الإنسان والطبيعة ، وبذلك يصبحون في حلقة غير مفصومة من الاتحاد مع الله .

إن في تعاليم المسيح عيسى بن مريم إشارة إلى مثل هذا إذ يقول - انه لأهون على الجمل أن ينفذ في سم الخياط من أن يدخل غنى ملكوت السماوات . وليس لهذا من معنى الا أن كل ما ندخر لا نقسنا هو بمثابة قاصل يفصل بيننا وبين بقية الأشياء . او بمعنى أوجز - أن حطامنا هي منتهى أفقنا . فان من يعكف على استجماع الثروة والفنى ، يصبح عاجزاً عن ان يلج ذلك الباب الذي يفتح امامه مجال الإدراك الحقيقي لطبيعة العالم الروحي ، عالم الألفة الكاملة . ذلك لان نفسه تكون مستمرة الانتفاخ بالمادة ، دائمة الانبعاث بالانيويات . وينحصر مجاله في ما بين تلك الجدران الضيقة التي تقيسها من حوله مستجمعاته المحدودة .

اما التعاليم التي يدعو اليها « اليوبانيشاد » فهي - انك من أجل ان تصل إلى الروح الاعلى - يجب عليك أن تدرك الكل . وانك في بحثك وسميك وراء النفس دائماً تترك كل شيء . لتحصل على أشياء قليلة ، وان هذا ليس سبيل الاتصال به ، الذي هو الكمال الصرف ، والخير المحض .

من بين فلاسفة أوروبا المحدثين ، فئة على الرغم من كونهم مدينون ، بطريق مباشر او غير مباشر « لليوبانيشاد » وعلى الرغم من انهم لا يعترفون بهذا الدين ، يعتقدون بان « براهما » الهند عبارة عن تجريد صرف ، وذهول فكري محض ، وانكار كامل لكل ما هو كائن في هذه الدنيا . وعلى الجملة ان الموجود اللامتناهي لا يمكن أن يكون له وجود الا في عالم الغيبيات وليس بعيد ان يكون هذا المذهب او ما يقاربه لا يزال منتشر بين فئة من اهل الهند . غير ان هذا غير مطابق لمقتضى الحالات التي يقوم عليها روح العقل الهندي وقوامه . فان هذا المذهب ، على العكس من ذلك ، عبارة عن وسيلة عمالية لتحقيق وجود الانهية واثبات

حلولها في كل الاشياء التي ظلت كل الاعصر باثة وحيها ، نابذة سرها . والفروض علينا ان نوقن بان :

« كل ما في الدنيا من موجودات مندمج في الله . إني انما اسجد لله مرة تلو اخرى . لاني اراه في النار وفي الماء وهو الذي يحل في كل نواحي العالم وفي المحصولات التي نحبوها الارض كل عام كما هو في الاعشاب الدورية الحياة »

هل يمكن أن يكون هذا هو الله المجرد عن كل ما في الكون ؟ على العكس من ذلك ، فان هذا المذهب لا يزودنا بان نراه في كل الاشياء لا غير ، بل يلزمنا أن نحياه ونعجمده في كل الموجودات التي يتضمنها العالم . فان موقف الرجل « الشاعر بالله » في اليوبانيشاد ازاء الكون ، لموقف يتجلى فيه شعور التقديس العميق والعبادة الحقة . فان موضع عبادته موجود امامه في كل شيء ، وحيثما كان . ان معبوده هو تلك الحقيقة الحية السرمدية التي تثبت وجود كل الحقائق التي ندركها . وليس هذا الحق بمطوى بين جنبات المعرفة وحدها ، بل هو كامن في تضاعيف العبادة والخضوع . أنا نسجد له حيثما كنا ، مرة بعد اخرى . أنه ليتجلى في سورة « الريشي » الذين يهيمون بكل من في الدنيا في اخذة . افتتانهم الفجائية المملوءة بالشفف والجلد : صائمون

« أصغوا اليناء ، أنتم يا أبناء الروح الخالد ، أنتم يا من تمشون في المأوى السماوي . لقد عرفنا الذات العملية التي تنير اضواءها الخاطفة من وراء الظلمات ؟ »  
لسنا نجد شغفا شاملا في تجربة مثل هذه كلها يقين ، وكلها إيجاب ، حيث نمجز عن أن نجد أقل أثر للابهام أو السلب ؟

لقد بشر « بوذا » ، وهو أول واضع للذات العملية من مذهب « اليوبانيشاد » بمثل هذه الرسالة حيث يقول

« مع كل شيء ، سواء ا كان علاء أم حضيضاً ، بعيداً أم قريباً ، مريئاً أم غير مريئ ، سيكون لك صلة من الحب غير محدودة فلا تشرب بماء او نهمة للقتل . فانك اذا عشت تحت تأثير مثل هذا الوجدان قاعداً أو ماشياً جالساً أو مضطجعاً حتي تنام ، فهناك تكون « براهما فهراً » أو بعبارة اخرى —  
تكون حياً متجركا جذلاً في براهما »

هذا هو الروح ؟

يقول اليوبانيشاد : —

« هو الموجود الذي ينبعث من ماهيته ضوء الكل وحياة الكل . هو وجدان العالم .  
- براهما »

لنحسب بالكل . ولنذكر كل شيء . ذلك هو الروح . نحن كائنون في وجدانه  
جسماً وروحاً . إن من طريق وجدانه تجذب الشمس الأرض . ومن طريق وجدانه  
تنتقل موجات الضوء من سيار الى سيار . وليس ذلك في الفضاء وحده بل :  
« ان هذا الضوء وتلك الحياة ، هذا الموجود الكامل الشعور بكل شيء » ، هو  
في روحنا أيضاً »

هو كامل الوجدان في المكان . أو عالم الامتداد . كامل الوجدان في الروح :  
أو عالم الانهائية .

فمن أجل أن نحصل على وجداننا العالمي ، يجب علينا أن نوحّد بين شعورنا  
وذلك الشعور غير المتناهي ، المالىء لكل خلاء . الكائن في كل شيء .  
والحقيقة أن التقدم الانساني الصحيح يتفق مع هذا التوسع الكلى في مدى  
الشعور . فان كل ما حصلنا عليه من شعر وفلسفة وعلم وفن ودين ، انما هي  
وسائل تؤدي الى الذهاب بما يرمى اليه وجداننا الى عوالم أنقى طبيعة ، وأوسع  
جنبات . أن الانسان لا يحصل على مرافق أكثر بمجرد حصوله على امتداد أوسع .  
فهو أبعد عن الحصول على مرافق ما من طريق السلوك الظاهري . ذلك لان  
مرافقه تمتد بمقدار ما يكون في كيانه من حق . وحقيقته تقاس دائماً بنسبة  
لمرامي التي يرمى اليها وجدانه .

اننا على أية حال يجب أن ندفع ثمناً لما نحصل عليه من حرية الوجدان . وما  
هو هذا الثمن ؟ انه ينحصر في أن نطرح أنفسنا بعيداً . فان روحنا لا يستطيع  
أن يحقق وجوده الا بانكار ذاته وفي هذا يقول اليوبانيشاد : —  
« انك سوف تربح بالبذل . انك سوف لا تشهى أو تطمع »

من نصائح « الغيتا » Gita أن نعمل بعيداً عن حب المنفعة . وأن  
? ننظر النتيجة . على ان كثيراً من الناظرين في هذا الامر الخارجين عن سلطانه ،  
سنتجّون من هذه التعاليم أن تصور العالم على اعتبار انه غير حقيقة وانه وهم .  
لبيء كائن من تضاعيف ذلك الامر الذي يدعو به الغيرية والخلو من الغرض في

الهند . غير أن عكس هذا القول صحيح من كل الوجوه .  
 فان الانسان الذي يتطلع الى تحقيق عظمتة وحده ، ينزل من قيمة كل  
 شيء آخر في الوجود . فاذا قارن بين نفسه وبين بقية العالم ، خيل اليه أن تلك  
 البقية شيء غير حقيقي . اذن فمن اجل أن يصبح الانسان مدركا لحقيقة الكل  
 ينبغي له أن يكون حرا طليقاً من كل القيود التي تقيد به رغباته الشخصية .  
 وهذا النظام من الواجب علينا أن نخضع له اذا ما أردنا أن نمهد لأنفسنا سبيل  
 القيام بواجباتنا الاجتماعية . واقتسام الاحمال التي ينبغي تحملها اخواننا في الانسانية  
 وكل جهد يصرفه الانسان لكي يحوز حياة أوسع مدى وأرحب افقا ،  
 يحتاج منه أن يصبح قائماً « بالرجح من طريق البذل وأن لا يطمع » وعلى هذا يتعين علينا  
 أن نوسع تدرجنا وحالا على حال من حيز ادراك الوحدة مع الكل لكي نكون  
 عاملين حقاً لما يجب أن تعمل له الانسانية .

لم تكن الانهائية في الهند عدماً خالياً من كل شيء . فان « ريشي » الهند قد  
 حققوا لنا : —

« أنه من أجل أن نعرفه — الروح الأعلى — في هذه الحياة يجب أن نكون على  
 حق . واذا لم نعرفه ، في هذه الحياة ، فتلك وحشة الموت وظلمة الفناء . »  
 وكيف نعرفه اذن ؟

« بان نحقق وجوده في جزئيات الاشياء وفي الكل . »  
 ليس فقط في الطبيعة ، بل في الاسرة ، وفي الجماعة ، وفي الحكومة . وكلما  
 ازدادنا تحققا ادراك العالم في الكل ، فذلك خير لنا . فاننا في اللحظة التي  
 نمجز فيها عن تحقيق ذلك نكون قد ولينا باوجهننا شطر الفناء .

وما من شيء يملؤ جوانحي غبطة وسرورا وأملا عريضاً في مستقبل  
 الانسانيه ، أكثر من تذكرى أنه مضي زمان ، منذ أقدم العصور ، وقف فيه  
 أنبياؤنا الشعراء تحت تلك الخيوط الذهبية التي كانت ترسل بها الشمس في سماء  
 الهند ، وحيوا العالم تحية الاعتراف باوحد القربى التي تربط أجزاءه . ولم يكن  
 في هذا شيء من خيال الفكرة الناسوتية (١) لم يكن فيه شيء من مرآى الانسان  
 منعكسا في كل مكان من صور يكبرها الوهم ويضخمها الاسراف في المبالغة ،

(١) انتر بومور فزم — الناسوتية أي الفكرة القائلة بتزويد الله بشيء من الخصائص الانسانية

ولا من تخيل المأساة الانسانية تمثل منتفخة مضخمة على مسرح الطبيعة العظمى .  
على العكس من هذا كان فيها معنى واحداً ، هو اجتياز حدود الفردية ، ليصبح الانسان  
اكثر من انسان . ليصبح واحداً مع الكل . لم يكن في ذلك شيء من الاعيب الخيال  
والتصور . بل كان تحرير الوجدان والادراك من الغاز النفس البشرية ومبالغاتها  
المحضة . لقد شعر هؤلاء الكاشفون القدماء من أعماق عقولهم بان نفس تلك  
القوة التي تهتز متشككة في صور شتى تكون أجزاء العالم ، هي بذاتها التي تظهر نفسها  
في أعماق وجودنا وفي صورة ندعوها الوجدان . وأنه لا اتصال للوحدة  
الخالدة . لم يترأ هؤلاء الكاشفين من صدع أو انشعاب خلال رؤاهم الاشعاعية لدى  
مرآهم الكمال الكلى . فانهم لم يؤمنوا حتى بالموت نفسه ، كقوة في استطاعها أن  
تحدث صدعاً في قوام الحقيقة قالوا : —

« ان في التأمل موت كافيه خلود » .

انهم لم يؤمنوا بفارق حقيقي بين الحياة والموت . حتى لقد قالوا قائلين :  
« انه الحياة التي هي الموت »

لقد هللوا بكل ما في جواهرهم من غبطة وسرور :

« للحياة في مظهرى الاقبال والادبار . »

« ان كل ما مضى مخبوء في الحياة ، وكذلك كل ما هو آت . »

لقد عرفوا بان مجرد الظهور والافول اشياء سطحية كالامواج التي تتكسر  
على سطح البحر . ولكن الحياة التي هي باقية ، لا تعرف الانحلال ولا الانتقاص .  
لقد نشأ كل شيء من الحياة الخالدة . وكل شيء يهتز متراوحاً مع الحياة .  
لأن الحياة لا نهاية غير محدودة

هذا هو الميراث النبيل العظيم الذي تلقيناه عن آباءنا الاولين . وانهم ليطلون  
علينا من شرفة الابدية لينظروا كيف نختص بذلك المثل الاعلى من حرية الوجدان .  
وليس يقوم هذا المثل على قواعد من العقل وحده أو العاطفة وحدها . ان له  
اتساعاً أدبية اخلاقية يجب أن تخرج الى حيز الفعل والتنفيذ .

قيس في اليوبانيساد : —

« ان الذات العلية محققة الوجود في كل الانحاء . اذن فهي خير محض

مندرج من الكل »

للإنسان في وحدة حقيقية من المعرفة والحب وتبادل المصالح مع كل شيء .  
ولنحقق وجودنا الذاتي في الله الموجود في كل شيء . تلك هي ماهية الخير .  
وذلك هو جوهره . وهذا هو الباب الذي نلج منه الى تعاليم اليوبانيشاد : —  
« الحياة غير محدودة . »

## قبيل السحر (١)

في تلك الساعة التي تتناجي فيها الارواح ، وترسل بسيالاتها السرية الى  
اعماق هذا الوجود ، عساها تنزع منه سر البقاء والفناء ، كنت أسير وشاطيء  
النيل ، وقد أرسل القمر باشمته القضيبة الوضاءة على اشجار الكافور القائمة  
على شاطئ النهر بمقربة من حديقة الاسماك ، فكان يخيل الى أن تلك الاشجار  
الباسقة قد استحالت ارواحا مرحة باسمه ، تتلقى ضوء القمر بالراحتين ، لتلقى  
بها على صفحة النهر النحاسية .

وعلى الشاطئ الآخر منحدرات كستها الاعشاب . ومن ورائها مزارع  
تمتد الى منتهى النظر ، لتنتهي بكثبان من الرمال والتلال القائمة في وسط  
الصحراء الفريية ، وهي أشبه بالآمال العريضة اذ تكتنف القلب وقد أوحشته  
اللوعة ، وأمضه الفراق . وكانت ظلال الاشجار تكسو الشاطئ وقسم من  
صفحة الماء يتخايل اليك من ورائه لمان يزكو ويخبو ، فكان أشبه الاشياء  
بهذه الحياة وما فيها من مختلف الصور ، أذ ترى في ساعة هنية رضية ، وفي  
أخرى عوجاء هوجاء

وأى زمان تنم فيه بمثل مانعت الا في شهرآب ، وأنت بين غياض الارض  
والقمر يكسوها باشمته القضيبة الجميلة ، وقد خيل اليك أن صلتك بالعالم  
المادى قد قطعت ، ولم يبق لك بهذه الدنيا من رابطة اللهم الارابطة الامل